مفهوم الانسجام الصّوتي عند النقاد و البلاغيين المغاربة

ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) نموذجاً

د. المهدي بوروبة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان

تمهيد:

تعالج هذه الدّراسة ظاهرة صوتيّة تشكيليّة تتمثّل في الانسجام الصّوتي بين عناصر الكلمة الواحدة، وبينها وبين ما يجاورها من كلمات أُخر.

والمتتبّع لتاريخ الدّرس اللّغوي العربي بعامّة يدرك أنّ هذه الظاهرة ظلّت تشغل بال النحاة واللّغويين و أهل البلاغة و النقد على اختلاف بيئاتهم، وعبر عصور العربية المتعاقبة. وذلك بحثا عن أسرارها قصد تفسيرها، و من ثمّ الوقوف على نواميسها المتحكّمة فيها.

ومن هنا، كانت هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر الصوتية الأخرى داعيا من الدواعي الرئيسة التي دفعت العرب إلى البحث الصّوتي ، إذ مكنتهم من إدراك أهميّة هذا البحث بالنّسبة إلى علوم اللّغة الأخرى. فقد تنبّه أصحاب المعاجم، منذ وقت مبكّر، إلى دور الصّوتيات في قضايا المعجم، فأسّس الخليل . وهو رائدهم في هذا الميدان . معجمه على مبادئ علم الأصوات، يبدو هذا لديه في مخاطبة تلميذه

اللّيث بن المظفّر قائلاً له: "لو أنّ إنساناً قصد وألف حروف ألف وباء وتاء وثاء على ما أمثّله لك لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب".[1]

واستقر عند الخليل، أنّه لا سبيل إلى حصر كلام العرب إلاّ باستثمار معطيات علم الأصوات، يتجلى هذا في قوله: "بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضمّ إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب".[2]

واستفاد المهتمون بالإعجاز والبلاغة أيضا من تناول النحاة واللغويين لصوتيات العربية، فعملوا على توظيف تلك المباحث الصّوتية في تفسير كثير من القضايا المتعلقة بالإعجاز والبلاغة.

فهذا ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) ينطلق في شرحه لمفهوم **الانسجام الصوتي**، من خلال إيراد مقابله أي **التنافر الصوتي** والأسباب المؤدية إليه، وذلك بالعودة إلى تراث الخليل الصوتي- على نحو ما فعل معاصروه- ليقتبس منه بعض الأفكار قصد الارتكاز عليها في تحديد معالم الظاهرة فيقول: "أمّا التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد، وذلك أنّه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطّفر، وإذا قرب القرب الشّديد، كان بمنزلة مشي المقيّد، لأنّه بمنزلة رفع اللّسان وردّه إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللّسان".[3]

و الظاهر من هذا النص، أنّ توزيع الأصوات من حيث المخارج هو الذي يتحكّم- في نظر ابن رشيق- في مسألتي الانسجام و التنافر الصوتيين، فكلما تباعدت الأصوات مخرجا أدى ذلك إلى بعث توافق صوتي بين عناصر السلسلة الصوتية.في حين أن أيّ تأليف تقاربت مخارجه سيؤدي إلى تصدّع بنائه وثقل أصواته و من ثم تنافرها.

ويمضي ابن رشيق في تفسيره لمسألة الانسجام والتلاؤم بين الأصوات مستندا إلى قول الخليل السابق ، فيرى أنّ الانسجام بين الأصوات داخل التركيب يكمن "في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللسان وحسنه في الأسماع، وتقبّله في الطّباع".(4)

ويضيف ابن رشيق، أنّ أفضل الشعر وأعذبه ما تباعدت مخارج أصواته، وخلا من التكرار، ويتجلى هذا لديه في قوله: "ومن الشعر ما تتقارب حروفه، أو تتكرر فيثقل على اللّسان، نحو قول ابن يسير:

لم يضرها والحمد لله شيء وانثنت نحو عزف نفس ذهول

فإنّ القسم الأخير من هذا البيت ثقيل، لقرب الحاء من العين، وقرب الزاي من السين".(5)

ومن قبيل هذا البيت ما أورده ابن رشيق كذلك لكعب بن زهير حيث يقول:

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنّه منهل بالراح معلول

فرأى أنّ الشاعر جمع بين الضاد والذال والظّاء، وهي متقاربة مخرجاً وصفةً ممّا أحدث ثقلاً وعسراً في هذه الأصوات وهي متتابعة.(6)

ففي هذا القول إشارة من ابن رشيق إلى دور الصفة إلى جانب المخرج في ائتلاف الأصوات وتجاورها، و هو رأي مقتبس من الخليل أيضا. فقد نصّ في أكثر من موطن على أنّ لمخارج الأصوات وصفاتها و أجراسها أثرا كبيرا في تمازج الأصوات و ائتلافها أو تنافرها و اختلافها. فقد قاده علمه بأسرار العربية إلى أنها تأبى بناء تقاربت مخارج أصواته، من ذلك قوله:" العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما" (7). واهتدى الخليل أيضا إلى دور الصفة في إحداث الانسجام والتلاؤم بين الأصوات المتجاورة إذا تقاربت مخارجها وتباينت صفاتها، من

ذلك" أن الضاد و الكاف إذا ألفتا فبدئ بالضاد فقيل: **ضك** كان هذا تأليفا لا يحسن في أبنية الأسماء و الأفعال إلاّ مفصولا بين حرفيه بحرف لازم أو أكثر،وذلك نحو: الضَّنك و الضحك و أشباه ذلك"[8]. وعليه فتقارُب صوتين مخرجا و اختلافهما صفة كان مما تنفر منه العربية و تأباه[9].

ويحاول ابن رشيق تقريب مفهوم التنافر من ذهن المتلقي، وذلك بإيراد بيت شعري اعتاد البلاغيون قبله وبعده على سوقه مثالاً لتنافر الكلمات وعدم انسجامها، وهو قول الراجز:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فقد نصّ على أنّ تكرار ألفاظ هذا البيت وتردّد حروفه جعلاه من أثقل الأبيات وأعسرها نطقاً حتى اتّخذه البعض ألقية يختبر بها الناس، فلا يقدر أحد على إنشاده ثلاث مرات إلاّ عثر لسانه وغلط.

ويشاطر ابن رشيق ما قرره معاصره ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) الذي رأى أنّ التنافر وعدم الانسجام يكمنان فيما تقارب من الأصوات مخرجاً، أو أنّ حقيقة الانسجام والتلاؤم يتجسّدان في تأليف الأصوات المتباعدة مخرجاً، ويضرب لذلك مثالاً بكلمة **(ألم)** التي رأى أنّها "غير متنافرة لكونها بُنيت من حروف متباعدة المخارج، لأنّ الهمزة من أقصى الحلق والميم من الشفتين، واللام متوسّطة بينهما"[10].

غير أنّ ابن سنان الخفاجي يعارض بهذا المثال الخليل الذي ذهب إلى القول بالتنافر عند البعد الشديد، فقد نصّ ابن سنان على أنّه "متى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجهاً في التنافر".[11] في حين يذهب ابن رشيق إلى تأييد الخليل فيما ذهب إليه إذ يقول:"ورأي الخليل عندي أصوب وميزانه أرجح"[12]

وبناءً على ما سبق يفضل ابن رشيق أن يكون الشّعر مصاغا وفق هذه الشروط الصّوتية، لأنّ ذلك يضفي عليه ويجعله سهلا ميسّرا. ويستعين ابن رشيق ههنا بقول الجاحظ الذي نص فيه على أنّ" أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان".[13] و المعنى نفسه تقريبا ينقله عن قدامة بن جعفر الذي كان يرى أنّ أجود الشعر ينبغي أن "تتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أوشبيه به أو من جنس واحد في التصريف [13].

وقد علّق ابن رشيق على القولين فنص على أنه :" إذا كان الكلام على هذا الأسلوب لذّ سماعه، وخفّ محمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، و تحلى في قلب سامعه، فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه، وثقل على اللّسان النطق به، ومجّته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء". [14] ولعل الذي دعا العربية إلى نبذ كلّ تنافر لحق بأصوات كلماتها، فهي تقاوم كلّ تصدّع أو عدم انسجام حلّ بأبنيتها فتعمل على تصفية أصواتها من كلّ ما يشوبها من ثقل أو عدم انسجام.

ولعل ابن رشيق يشير ههنا أيضا إلى أثر صفات الأصوات وأجراسها [15] وأصدئها في تلاؤم الأصوات وانسجامها، وهي فكرة مقتبسة كذلك من الخليل الذي نص في مواطن عديدة من كتاب العين على أن لجرس الصوت دور في إحداث تكييف بين العناصر المكونة للسلسلة الصوتية، من ذلك قوله:" العين والقاف لا تدخلان في بناء إلاّ حسنتاه، لأنهما أطلق الحروف وأضخمهما جرسا، فإذا اجتمعا في بناء حسن البناء لنصاعتهما، فإن كان البناء اسما لزمته السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف، لأنّ الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها، وارتفعت عن خفوت التاء فحسنت، وصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاي كذلك".[16]

والظاهر أنّ الذي قاد العربية إلى تحقيق هذا الانسجام والموسيقيّة بين أصواتها كونها عاشت فترة طويلة تعتمد في نقلها وحفظها على حاسّة السّماع. فقد أولاها العرب عناية خاصّة قصد حفظ وتوصيل تراثهم للأجيال المتعاقبة. فقد كانوا يرون في حاسة السماع الوسيلة المثلى في اكتساب ونقل كلّ معارفهم، بل كانت في نظرهم خير مطيّة لتلقي الشعر عن روّاته وحفظته، وأسمى طريقة لحمل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وعلى هديها سار النقاد في فرز جيد الشعر من رديئه، وعلى نهجها ماز اللغويون فصيح اللهجات من مذمومها، وعلى أساسها تمّ استخراج ضوابط اللغة العربية وقواعدها، وبإيحاء منها انبرى علماء القراءات في استنباط أحكام التجويد.[17]

ولعل هذا الدور الرئيس الذي أولاه العرب لحاسة السماع، هو الذي كان من وراء تلك الجملة الشهيرة التي صدح بها ابن خلدون، وهو يتحدث عن أثر السماع من الأعاجم في فساد النطق بالأصوات العربية، فقال:" السمع أبو الملكات اللسانية".[18]

والحق إن اعتماد التراث العربي، في نقله وتبليغه، على المشافهة والسماع، قد أديا إلى تخليص العربية في أصواتها وكلماتها و تراكيبها من كل ما يشوبها من المركبات المتنافرة نطقا وغير المستساغة سماعا، مما سبغ على الكلام العربي انسجاما واتزانا، وعلى الكلمة العربية سلاسة و انسيابا و مسحة موسيقية امتازت بها عن سائر أخواتها الساميات.فقد سجل أحد الباحثين أنّ "الكلمة العربية تشكل وحدة صوتية جيدة، وأنها موزونة أينما وردت في الشعر و النثر، وأنّ كل اللغات السامية قد خلت من هذه الموسيقية التي توفرت في اللفظة العربية، حتى إنّ المستشرق الألماني **(شادة)** لم يجد مثلا قصيدة عبرية واحدة فيها البحر أو الوزن الموحد من أولها إلى آخرها.وإنما وجدت لمحات من أوزان مختلفة".[19]

وقد ساعدت هذه الموسيقية التي تحلت بها العربية في حفظ الموروث الثقافي، وذلك لأنّ "الكلام المنسجم المنتظم أقل عبئا على الذاكرة السمعية، وأيسر في إعادته وترديده ".[20] وقد فسّر مؤرخو الأدب كثرة ما روي من الأشعار، إذا ما قيس بما نقل من النصوص النثرية، إلى أن حفظ الشعر و تذكره أيسر وأهون، وأنه يمتاز بانسجام المقاطع وتواليها، وأنه يخضع لنظام خاص في التوالي يسمح بترديده دون إرهاق للذاكرة.[21]

والظاهر، أنه ما كان للعربية أن تصل إلى ما وصلت إليه من رشاقة في ألفاظها، وانسياب في أصواتها دون أن تمر بتصفية أبنيتها الصّوتية ممّا يخالطها من المركبات الصوتية العسيرة نطقاً والمكلفة جهداً نتيجة ائتلاف الأصوات وتجاورها في السياق، لأنّه "في كلّ لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، فهي تكوّن نظاماً متجانساً مغلقاً تنسجم أجزاؤها كلّها فيما بينها".[22]

والثابت أنّ التنافر مظهر من مظاهر النظام الأصلي في اللغة، يتولّد عن مركّب صوتي عسير النّطق يتشكّل من تجاور صوتين متنافرين مخرجاً أو صفةً. وقد سلكت العربية نهجاً معيّناً في الفرار من هذه التجمعات الصوتية المجهدة، إذ توسّلت إلى طائفة من الظواهر الصوتية، مع مراعاة طبيعة كلّ سياق، وما يستلزمه من هذه الظواهر، وذلك قصد بعث الانسجام والخفّة بين أصوات هذا المركّب الذي عسر نطقه.

فمن المجاميع الصوتية التي اُستثقلت لتتابع صوتين متقاربين مخرجاً نورد ما ذكره ابن رشيق في قوله السابق الذي نصّ فيه على أنّ الذال والظاء لا تجتمعان في بناء إلاّ ثقّلتاه لاشتراكهما في مخرج واحد، واتفاقهما في معظم الصّفات، ومثلهما الحاء والعين، والسين والصاد.[23]

وبناءً على ما تقدّم، نخلص إلى أنّ ابن رشيق لم يخرج عمّا كان معروفاً متداولاً بين معاصريه، أو من كانوا قبلهم في معالجة ظاهرة الانسجام الصّوتي.

الهوامش

(1) الفهرست، ابن النديم، محمد بن إسحاق،مكتبة الخياط، بيروت لبنان، د.ت، ص 43.
(2) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق إبراهيم السامرائي، ومهدي المخزومي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية 1980، ص 60/1
(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تأليف ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 2001، ص 262 – 263 .
(4) نفسه، ص 258 .
(5) نفسه، ص 262 .
(6) نفسه، ص 263 .
(7) العين، ص 60/1.
(8) مقدمة التهذيب ص 1/ 61.
(9) نفسه، ص 60/1.
(10) سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة 1969، ص 91 ، وينظر العمدة، ص 258 .
(11) سرّ الفصاحة، ص 91 – 92 .
(12) العمدة، ص 160 .
(13) نفسه، ص 258.
(14) نفسه، ص 258– 259.
(15) العين، ص 53/1–54.
(16) نفسه، ص 53 – 54 .
(17) أثر الدخيل على العربية الفصحى،ص109ومجلّة التراث العربي، العدد15و16، ص:237
(18) المقدمة، لعبد الرحمان بن خلدون، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة مصر، د.ت،ص:546.
(19) الدراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين، ط1 مكتبة الحياة بيروت، لبنان، 1980، ص:456.
(20) موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت لبنان،ط4، 1972،ص:14.
(21) نفسه، ص:17.
(22) اللغة، ج . فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية، ومطبعة لجنة البيان العربي القاهرة 1950، ص 62 .
(23) العمدة، ص 62 – 63 .